الطب النفسي الأرثوذكسي

الميتروبوليت ييروثيوس فلاخوس

هـذا الكتـاب هـو من أقـدم وأهم مـا كتب الميـتروبوليت يـيروثيوس فلاخـوس، مطـران نافبـاكتوس وأيـوس فلاسيوس في اليونان، وهو من أغزر الكتاب الأرثوذكسيين في النصـف الثـاني من القـرن العشـرين إلى اليـوم. يزخر هذا الكتاب بالاستشهادات الآبائية الفيلوكالية، وهذا ما جعل العديد من المترجمين واللاهوتيين الناطقين بالعربية لا يقربون ترجمته. بالمقابل هذا الكتاب موجود في مـا يزيـد عن عشـر لغـات غـير اليونانيـة الـتي هي الأصل. أول صدور للكتاب كان في عام ١٩٩٤. ترجمته إلى العربية د. نيفين سعد، وهي طبيبة مصرية أخصـائية في الطب النفسي وأمراض المخ والأعصاب. صدرت ترجمتها في ٢٠٠٩. طلب صاحب السيادة من الأب أنطوان ملكي مراجعة الكتاب الذي سجّل كمّاً ضخماً من الملاحظات. طلب الميتروبوليت أن لا تصدر طبعـة ثانيـة قبـل تصحيح هذه النقـاط، ولم تصـدر الطبعـة لأن د. نيفين التحقت بأحـد الأديـار في أميركـا. قبـل التحاقهـا قـامت بترجمة ثلاث كتب أخرى للكاتب نفسه وراجعها الأب أنطوان ملكي.

أما النسخة المنقحة من كتاب "الطب النفسي الأرثوذكسي" فبقيت عالقة إلى الآن، حيث سوف تصدرها مجلة التراث الأرثوذكسي على فصول. تنصح التراث الأرثوذكسي كل الذين سبق أن اقتنوا الكتاب بنسـخته الورقيـة أن يهملوه ويعيدوا قراءته في هذه النسخة المنقحة لأن الفرق كبير. هذا الفرق يعود بشكل أساسي، كما اتّضـح من خلال عمل الأب أنطوان ملكي مع د. نيفين على أربـع كتب، إلى خلفيتهـا. فالعديـد من المفـاهيم الأساسـية التي يقوم عليها هذا الكتاب، وبشكل رئيسي النوس والهدوئية، غير معروفة لدى الأقباط، أقله الذين لا يعرفون الفيلوكاليا ومنهم كهنة وكتّاب ومفكـرون. من هنـا أن المراجعـة كـانت عملاً شـاقاً اسـتدعى في بعض الأحيـان استبدال مقاطع برمتها، خاصةً تلك الموجودة باللغة العربية من ترجمات عن الأصل اليوناني، وليس عن مصادر بلغات أخـرى. فغالبيـة الترجمـات عن مصـادر غـير يونانيـة، خاصـةً إن لم تكن قـد تمت مراجعتهـا على الأصـل اليوناني، تعاني من درجات مختلفة من الخلل الذي يبلغ الشطط في بعض الأحيان.

مقدمة الكاتب

لا يشير تعبير "الطب النفسي الأرثوذكسي" إلى الحالات الخاصة التي تعاني من مشاكل نفسية وعصبية، بل هو يعني كل الناس. يرى التقليد الأرثوذكسي أن آدم صار مريضًا بعد السقوط وأظلمّ عقله، وفقد شركته مع الله، وبالتالي دخل الموت إلى كيان الإنسان، وسَبب العديد من المشاكل الإنسانية والإجتماعية بل وحتى البيئية. وفي مأساة السقوط احتفظ الإنسان بصورة الله داخله، ولكنه فقد تمامًا شبَهَه به، حيث أن شركته مع الله كانت قد تمزقت. وعلى أية حال، فإن تجسد المسيح وعمل الكنيسة يهدفان إلى جعل الإنسان قادراً على الوصول إلى الشبه مع الله الذي هو إستعادة الشركة معه. ويسمى هذا العبور من حالة السقوط إلى حالة الإتحاد بالله "شفاء الإنسان"، لأنه مرتبط بعودته من حالة كونه ضد الطبيعة إلى الحالة الطبيعية والفوق طبيعية. ويستطيع الإنسان بالالتزام بالعلاج الأرثوذكسي، كما يرى آباء الكنيسة القديسون، أن يتكيّف مع الأفكار بنجاح، وبالتالي يحل مشاكله بطريقة شاملة وكاملة.

إني أود أن أؤكد ثانية على أن تشخيص كل الحالات المرضية النفسية والعصبية ليس هو موضوع هذا الكتاب، لأن هذا مجال الطب النفسي. ومن ناحية أخرى فإن العديد من الأمراض النفسية يأتي من الخوف من الموت، وفقدان معنى الحياة، والضمير المثقَّل بالإحساس بالذنب، وفقدان إتحاد الإنسان بالله. ويستطيع اللاهوت الكنسي بكل تأكيد أن يساعد إما بالوقاية أو بشفاء الأشخاص الذين يعانون من مثل هذه المشاكل الوجودية.

وبالتالي فإن الطب النفسي والعصبي يشفي الإضطرابات بينما اللاهوت الأرثوذكسي يشفي الأسباب الأكثر عمقًا التي تتولد منها هذه الأمراض.

سوف يجد القارئ في هذا الكتاب المسار الذي من خلاله يصل إلى الشركة مع الله، وبالتالي يحقق الهدف من الوجود الإنساني. كما سيجد فيه أيضًا الطريقة التي تمكنه من أن يقي نفسه من الأمراض البدنية المختلفة.

وبذلك يصبح الطب النفسي الأرثوذكسي أكثر فائدة للذين يبتغون حلّ مشاكلهم الوجودية، الذين أدركوا أن عقلهم قد أظلمَّ، وبالتالي يجب عليهم أن يتحرروا من طغيان أهوائهم وأفكارهم لكي يصلوا لاستنارة عقولهم والشركة مع الله.

وبرتبط كل هذا العلاج النفسي بدرجة وثيقة بتقليد الكنيسة النسكي وبحياتها الهدوئية كما هو محفوظ في كتابات آباء الكنيسة، وبصورة بارزة في تعليم القديس غريغوريوس بالاماس. وبالتأكيد، لا ينبغي أن نغفل حقيقة أن الحياة النسكية والهدوئية هي نفس الحياة التي نراها في حياة الأنبياء والرسل، كما هي موصوفة في الأسفار المقدسة. وسوف يتّضح في تحليل فصول هذا الكتاب أن الحياة النسكية هي في الحقيقة حياة الأناجيل.

أعتقد أن حياة اليقظة الهدوئية اكنت موجودة أيضاً في العالم الغربي قبل أن تُستَبدَل باللاهوت السكولاستيكي. السكولاستيكية

إنني أؤمن أن المشكلة العظمى للفلسفة الغربية هي أنها توحّد بين العقل والذهن، وبين المعرفة الذهنية والمعرفة الوجودية. وفي الواقع، إن التقليد النسكي هو التقليد المشترك بين الشرق والغرب في الفترة التي

سبقت التوحيد بين اللاهوت والماورائيات. وهذا التقليد النسكي هو الذي يهدئ تمامًا روح الإنسان الذي يسعى إلي تحقيق ذاته وإلى الهدوء والسلام الداخلي. من الضروري أن نجد ونعيش هذه الطريقة العلاجية فيما نحن نسلك في ألم عالم اليوم وإضطرابه، ما يقهرنا ويؤلمنا ويوصلنا لجوع وعطش حقيقيين، وهذا بحسب تعاليم آباء الكنيسة القديسين. فالأكيد أن آباء الكنيسة القديسين سبقوا علماء النفس والأطباء النفسيين المعاصرين.

إن الأشخاص الذين شُفوا بالفعل هم الدليل على أن الكنيسة تعمل في المجتمع بطريقة خلاصية. وهذا هو بالضبط الغرض العظيم الذي تقدمه الكنيسة الأرثوذكسية من خلال لاهوتها وحياتها. وطريقة الكنيسة هذه تختلف بوضوح عن الطرق النفسية الأخرى لأن مركزها ليس الإنسان (anthropocentric) بل هو الإنسان المتألّه (theanthropocentric)، ولأنها لا تقوم بعملها بطرق بشرية بل بمعونة وقوة النعمة الإلهية، وبدرجة أساسية بالتآزُر (synergy) بين الإرادة الإلهية والإنسانية.

لقد أردت في هذا الكتاب أن أؤكد على بعض الحقائق إذ تمنيت أن أشير إلى جوهر المسيحية، كما إلى الطريقة التي تستعملها لتحقيق هذا الشفاء. وهدفي الرئيسي هو مساعدة الإنسان المعاصر لكي يجد شفاءه داخل الكنيسة الأرثوذكسية، إذ أننا نحن أيضاً نجاهد لكي نحصل عليه. إني أدرك أننا جميعاً مرضى ونحتاج لطبيب: إننا سقماء ونحتاج للشفاء. والكنيسة الأرثوذكسية هي الملجأ والمستشفى الذي يستطيع كل شخص مريض ومتألم أن يُشفى فيه.

على رجاء أن يستفيد البعض من هذا الكتاب كوسيلة للبحث عن شفائهم في الكنيسة وتعليمها، أمجّد الرب الذي أعطاني الإلهام والقوة لأداء هذا العمل الصعب وأطلب منه أن يرحم ضعفي.

المتروبوليت ييروثيوس فلاخوس

الفصل الأول

الأرثوذكسية كعلمٍ علاجي

لقد صيغت عدة تفسيرات للمسيحية وأُعطيت عدة إجابات على الأسئلة التالية: ما هي المسيحية وما هي رسالتها في العالم؟ ولكن أغلب هذه الإجابات غير صحيحة. سوف نحاول في ما يلي أن نوضح قدر الإمكان أن المسيحية، والأرثوذكسية بوجه خاص، هي علاج. وسوف نحاول أيضاً أن نصف ما هو العلاج وكيف يتحقق.

١- ما هي المسيحية

الكثيرون، في وصفهم للمسيحية، يرون أنها واحدة من عدة فلسفات وأديان معروفة منذ القدم. ما لا شك فيه هو أن المسيحية ليست فلسفة بالمعنى السائد اليوم. فالفلسفة تؤسس نظاماً فكرياً لا علاقة له بالحياة في أغلب الأحيان. الفرق الجوهري بين المسيحية والفلسفة هو أن الفلسفة هي تفكير بشري، في حين أن المسيحية هي إعلان إلهي. ليست المسيحية إكتشافًا من الإنسان، ولكنها إعلان من الله للإنسان. لقد كان من المستحيل على المنطق البشري أن يصل إلى حقائق المسيحية لعجز الكلمة الإنسانية، لذلك أتى الكلمة/الإله/الإنسان، أي المسيح كلمة الله. صياغة هذا الإعلان الإلهي تمّت بمصطلحات الفلسفة المعاصرة. ومع ذلك يجب علينا أن نؤكد ثانية أن المسيحية ليست فلسفة . لكن _ الإله/الكلمة/الإنسان لبس من فلسفة هذا الزمان.

يلاحظ القديس يوحنا الذهبي الفم في تفسير أشعياء: " فَإِنَّهُ هُوَذَا السَّيِّدُ رَبُّ الْجُنُودِ يَنْزِعُ مِنْ أُورُشَلِيمَ وَمِنْ يَهُوذَا السَّنَدَ وَالرُّكْنَ، كُلَّ سَنَدِ خُبْزٍ، وَكُلَّ سَنَدِ مَاءٍ. الْجَبَّارَ وَرَجُلَ الْحَرْبِ. الْقَاضِيَ وَالنَّبِيَّ وَالْعَرَّافَ وَالشَّيْخَ. رَئِيسَ الْخَمْسِينَ وَالْمُعْتَبَرَ وَالْمُشِيرَ، وَالْمَاهِرَ بَيْنَ الصُّنَّاعِ، وَالْحَاذِقَ بِالرُّقْيَةِ" (إش٣:١-٣): "يبدو هنا أنه يسمّي الشخص القادر على التنبؤ بالمستقبل من خلال الذكاء الشديد والخبرة بالأشياء عرَّافاً. وفي الواقع فإن العرافة والنبوة هما شيئان مختلفان. فالنبي يضع ذاته جانباً ويتكلم بوحي إلهي، بينما العرَّاف يبدأ مما حدث بالفعل، ويُعمِل ذكاءه، ويرى مُسبقاً العديد من الأحداث المستقبلية كما يفعل الشخص الذكي بصورة طبيعية. ولكن الفرق بينهما كبير وهو المسافة التي تفصل بين الذكاء البشري والنعمة الإلهية"[1].

إذاً، الاستبصار (الفلسفة) هو إذاً شيء، والنبوة أو كلمة النبي الذي يتكلم باللاهوت هي شيء آخر. فالأولى هي نشاط بشري، بينما الثانية هي إعلان الروح القدس.

في كتابات الآباء، وخاصةً في تعليم القديس مكسيموس، يُشار إلى الفلسفة على أنها بداية الحياة الروحية. لهذا هو إستعمل مصطلح "الفلسفة العملية" قاصداً تطهير القلب من الأهواء الذي هو حقاً المرحلة الأولى في رحلة النفس نحو الله.

بالإضافة إلي ذلك لا يمكن أن ننظر إلى المسيحية كدين، على الأقل كدين يقدم نفسه اليوم. عادة ما يُصَوَّر الله على أنه ساكن السماء يوجّه تاريخ البشرية من هناك، ويضبط الأمور بشدة، ويحصل على سعادته من الإنسان

1.Commentary on Isiah. SC 304p. 154

الذي كان قد سقط إلى الأرض في مرضه وضعفه. وبالتالي هناك حائط يفصل الله عن الإنسان الذي عليه أن يتسلقه. يجيء الدين كمساعدة فعالة للإنسان والطقوس الدينية تُستَعمَل لهذا الغرض.

كما توجد رؤية أخرى فيها أن الإنسان يشعر بالعجز فى الكون، ويحتاج لإله قدير لكي يساعده في ضعفه. وبحسب هذا المفهوم، ليس الله هو الذي يخلق الإنسان، ولكن الإنسان هو الذي يخلق الله. وهكذا يولَد الدين كعلاقة للإنسان مع الإله المطلق بمعنى أنه "العلاقة بين الأنا والآخر المطلق". إلى هذا، يرى الكثيرون الدين على أنه وسيلة ينخدع بها الكثيرون إذ يحوّلون رجاءهم إلى الحياة الآتية، وهكذا تستخدم السلطات الغاشمة الدين لكي تضغط على الناس بواسطته.

ولكن المسيحية هي شيء أعلى من هذه التفاسير والنظريات، إذ لا يمكن أن تحُتوَى داخل المفهوم والتعريف المعتاد للدين الموجود في الديانات "الطبيعية ". الله ليس "الآخر" المطلق، بل شخص حي في إتحاد ملموس مع الإنسان. بالإضافة إلى ذلك، المسيحية لا ترجئ المشكلة للمستقبل ببساطة، أو تنتظر سعادة ملكوت السموات بعد التاريخ وبعد إنتهاء الزمان فالمستقبل في المسيحية يُعاش في الحاضر ويبدأ ملكوت الله في هذه الحياة. وبحسب تفسير الآباء، ملكوت الله هو نعمة الله الثالوث، وهو معاينة النور الإلهي الأزلي.

لا ننتظر نحن الأرثوذكسيين نهاية التاريخ ونهاية الزمان، بل من خلال هذه الحياة في المسيح نجري لنقابل نهاية التاريخ، وبالتالي نحيا بالفعل الحياة المنتظرة بعد المجيء الثاني. يقول القديس سمعان اللاهوتي الحديث أن الذي عاين النور الإلهي واتحد بالله لا ينتظر المجيء الثاني للرب بل يحياه. تُعانقنا الأبدية، إذًا، في كل لحظة من الزمان. وهكذا يُعاش الماضي والحاضر والمستقبل بطريقة جوهرية في وحدة لا تتجزأ. وهذا هو ما يسمى بالزمن المكَّثف.

لا يمكن إذًا أن نصف الأرثوذكسية على أنها "أفيون الشعوب " لأنها بالتحديد لا تؤجّل المشكلة. إنها تمنح الحياة، تُحوِّل الحياة البيولوجية، تقدِّس المجتمعات وتبدِّلها. وحيثما تُعاش الأرثوذكسية بالطريقة الصحيحة وفي الروح القدس، توجد شركة بين الله والناس، وبين السماوي والأرضي، وبين الحي والميت. وفي هذه الشركة تُحَل فعلاً كل المشاكل التي تواجهنا.

وبالإضافة إلى ذلك، طالما بين أعضاء الكنيسة أناس مرضى ومبتدئين في الحياة الروحية، فمن المتوقع أن يفهم البعض منهم المسيحية على أنها "دين" بالمعنى المشار إليه أعلاه. فالحياة الروحية رحلة ديناميكية، تبدأ بالمعمودية التي هي تطهير "الصورة"، وتستمر عِبر الحياة النسكية التي تهدف إلى الوصول إلى "الشبه" الذي هو الشركة مع الله. علينا أن نوضح أنه حتى حين نتكلّم عن المسيحية كدين، علينا أن نحفظ بعض الإفتراضات المسبقة الضرورية.

أول هذه الإفتراضات هو أن المسيحية هي بصورة رئيسية كنيسة. و"كنيسة" تعني "جسد المسيح". توجد عدة مواقع في العهد الجديد حيث تسمى المسيحية كنيسة. سوف نذكر فقط كلمات المسيح: "أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي"(مت ١٨:١٦)، وكلمات بولس الرسول لأهل كولوسي: "ورأس الجسد الكنيسة"(كو ١٨:١)، ولتلميذه تيموثاوس: "فلكي تعلم كيف يجب أن تتصرف في بيت الله الذي هو كنيسة الله

الحي عمود الحق وقاعدته" (١ تي ٣:١٥). وهذا لا يعني أن الله يسكن ببساطة في السماء ويوجّه من هناك التاريخ وحياة البشر، بل هو متحد بنا. لقد أخذ الطبيعة البشرية وقدَّسها، وبالتالي بالمسيح تكون الطبيعة البشرية المقدسة في يمين الآب. فالمسيح إذاً هو حياتنا ونحن "أعضاء المسيح".

وثاني الإفتراضات هو أن غاية المسيحي هي الوصول لحالة الإتحاد بالله المباركة. ويتطابق الإتحاد بالله مع "الشَبَه"، أي أن يكون المرء مُشابهًا لله. في مطلق الأحوال، للوصول إلى الشَبَه وبلوغ معاينة الله، وكي لا تكون هذه المعاينة ناراً آكلة بل نوراً واهباً الحياة، يجب أن يكون الإنسان قد تطهّر أولًا. هذا التطهير والشفاء، هما عمل الكنيسة. عندما يشترك المسيحي في العبادة دون أن يحقق التطهير المعطي الحياة، مع أن أعمال العبادة تهدف أيضاً لتطهير الإنسان، فإنه لا يكون عائشاً داخل الكنيسة بحق. المسيحية بدون تطهّر هي المدينة الفاضلة. عندما نكون إذاً في عملية تطهّر وخاصةً في سيعينا إلى الشفاء، نستطيع أن نتكلّم عن الدين. وهذا يتماشى مع كلمات يعقوب الرسول: " إن كان أحد فيكم يظن أنه ديِّن وهو ليس يلجم لسانه، بل يخدع قلبه، فديانة هذا باطلة. الديانة الطاهرة النقية عند الله هي هذه: إفتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم" (يع ١ : ٢٦-٢٧).

يعطينا هذا التعفّف الحق لأن ندعي أن المسيحية ليست فلسفة ولا ديانة "طبيعية"، بل هي شفاء بشكل رئيسي. إنها شفاء أهواء الإنسان حتى يستطيع أن يصل إلى الشركة والإتحاد مع الله.

لقد أظهر لنا الرب عدة حقائق في مثل السامري الصالح. فعندما رأى السامري الرجل الذي وقع بين اللصوص الذين جرحوه وتركوه بين حي وميت، تحنَّن على الفور، فتقدم وضمد جراحاته، وصبّ عليها زيتاً وخمراً، وأركبه على دابته، وأتى به إلى فندق، وإعتنى به" (لو ١٠: ٣٣ -٣٤). لقد عالج السيد المسيح الإنسان المجروح وأتى به إل فندق، أي إلى المستشفى الذي هو الكنيسة. وهكذا صُور المسيح هنا كطبيب يشفي أمراض الإنسان والكنيسة كمستشفى.

ومن الأمور المميزة جداً أن القديس يوحنا الذهبي الفم في تحليله لهذا المثل قدّم الحقائق التي ركّزنا عليها. لقد نزل الإنسان من الحالة السماوية لحالة خداع الشيطان، ووقع بين اللصوص الذين هم الشيطان والقوات العدوّة، والجراح التي تكبدها هي الخطايا المتنوعة. وكما يقول داود: "أنتنَت وقاحت جراحاتي من قِبَل جهالتي" (مز ٣٨:٥). إذ أن "كل خطية تجلب كدمات وجراحاً". والسامري هو المسيح نفسه الذي نزل من السماء إلى الأرض لكي يشفي الإنسان المجروح. لقد استعمل الخمر والزيت للجراح وهذا يعني "أنه إذ مزج الروح القدس مع دمه، جلب الحياة للإنسان". وبحسب تفسير آخر "فإن الزيت يجلب الكلمة المعزية، والخمر يعطي الغسول المضمِّد، أي التوجيه الذي يجلب تركيزاً للعقل المشتت". لقد أركَبَه على دابته: "إذ حمل الجسد على كتفيه الإلهيين، رفعه نحو الآب في السماء". وهكذا قاد السامري الصالح، أي المسيح، الإنسان "إلى الفندق الرائع والفسيح أي الكنيسة الجامعة". لقد سلَّمه لصاحب الفندق الذي هو بولس الرسول "ومن خلال بولس لأساقفة ومعلمي وكهنة كل كنيسة"، قائلاً: "اعتنوا بالأمم الذين أعطيتهم لكم في الكنيسة، واعطوهم الشفاء، طالما أنهم مرضى مجروحون بالخطيئة، وضَعُوا عليهم الجبيرة التي هي أقوال الأنبياء وتعاليم الإنجيل،

جاعلين إياهم واحداً من خلال الإرشاد والوعظ الذي من العهدين القديم والجديد". وهكذا، وبحسب القديس يوحنا الذهبي الفم، فإن بولس هو الذي يدعم كنائس الله "ويشفي كل الناس من خلال الوعظ الروحي وتوزيع خبز التقدمة لكل واحد ...."[٢].

واضح جداً في تفسير القديس يوحنا الذهبي الفم لهذا المثل, أن الكنيسة هي مستشفى تشفي المرضى بالخطيئة، على حين أن الأساقفة والكهنة هم مانحو الشفاء لشعب الله مثل بولس الرسول.

تظهر هذه الحقائق أيضاً في عدة مواضع أخرى في العهد الجديد. لقد قال الرب: "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى" (مت ٩:ـ ١٢). يعي بولس الرسول جيداً أن ضمير الناس ضعيف وخصوصاً ا الناس البسطاء: "وهكذا إذ تخطئون إلى الإخوة وتجرحون ضميرهم الضعيف تخطئون إلى المسيح" (١ كو ١٢:٨). يقول سفر الرؤيا أن يوحنا الإنجيلي رأى ماء الحياة نهراً يخرج من عرش الله والخروف "... وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة تصنع إثنتي عشرة ثمرة، وتعطي كل شهر ثمرها، وورق الشجرة لشفاء الأمم" (رؤ ٢:٢٢).

عمل الكنيسة إذًا هو عمل علاجي، فهو يهدف لشفاء أمراض الناس وبشكل خاص أمراض النفس التي تصرعهم. هذا هو التعليم الرئيسي في العهد الجديد وآباء الكنيسة. وسوف توضح عدة نصوص من كتابات الآباء، هذه الحقيقة في ما يلي في هذا الفصل وفي الفصول الأخرى أيضاً.

أريد أن أؤكد هنا أيضاً أنه لا يمكن الاستغناء عن الكنيسة. إنني ممتن كثيراً للأب والأستاذ يوحنا رومانيدس على تأكيده على ذلك في كتاباته. أنا مقتنع أنه قارئ جيد لكتابات الآباء النساك وخصوصاً الفيلوكاليا، وبالتالي قد التقط معنى المسيحية الحقيقي. كما أعتقد أن هذه هي مساهمته العظيمة، وذلك لأنه في هذا العصر الذي تقدَّم فيه المسيحية على أنها فلسفة، أو لاهوت عقلي، أو تقليد ثقافي أو شعبي، أي عادات وتقاليد، يقدم هو هذا التعليم عن النظام العلاجي والشفاء.

إنه يقول بطريقة واقعية: "إن الإيمان بالمسيح، من دون تحقيق الشفاء في المسيح ليس إيماناً البتّة. إننا نجد هنا نفس التناقض التي نجده عندما لا يلتزم شخص مريض بالمرة بالعلاج الذي يصفه طبيبه، والذي يثق هو به ثقة شديدة. لو أن اليهودية ووريثتها المسيحية قد ظهرتا في القرن العشرين لكانتا على الأغلب قد تميّزتا، لا كديانات، بل كعلوم طبية في الطب النفسي، ولكان تأثيرهما واسعاً على المجتمع بسبب نجاحاتهما المتميزة في شفاء الشخصية التي تعمل بصورة جزئية. لم تكن اليهودية و المسيحية النبويّتان لتُفسَرا على أنهما ديانتان تستعملان مختلف الطرق السحرية و المعتقدات لكي تَعِدَا بالهروب من عالم مفتَرَض من المادة والشر والرياء إلى عالم روحي من الأمان والنجاح"[٣].

ويقول نفس الأستاذ في كتاب آخر:" إن التقليد الآبائي ليس فلسفة إجتماعية أو نظاماً أخلاقياً ولا جموداً عقائدياً دينياً، بل هو علاج شافٍ. وعلى هذا الأساس هو يشبه الطب إلى درجة كبيرة، وخصوصاً الطب النفسي. فالقوة الروحية التي للنفس التي تصلي بلا إنقطاع في القلب، هي أداة فيزيولوجية يمتلكها كل

2.PG 62, col. 755-757

3.J.Romanides: Jesus Christ the life of the world. (A talk in Greek translation), .p. 28f

شخص وتستلزم الشفاء. لا تستطيع الفلسفة ولا أي من العلوم المعروفة الإيجابية أو الاجتماعية أن تشفي هذه الأداة. من الممكن أن يحدث ذلك فقط من خلال تعاليم الآباء النسكية. وبالتالي فإن الذين لم يُشفوا هم عادة لا يعرفون حتّى بوجود هذه الأداة"[٤].

وهكذا فإننا في الكنيسة نُقسَّم إلى مرضى، وخاضعين للعلاج، وقديسين شُفُوا بالفعل."لا يصنِّف الآباء إلى أخلاقيين أو لا أخلاقيين، أو إلى صالحين وأشرار على أساس القواعد الأخلاقية، فهذا التصنيف سطحي. ولكن تنقسم الإنسانية في العمق إلى مرضى النفس، الذين في طور الشفاء، والشافين. كل الذين ليسوا في حالة الاستنارة هم مرضى بالنفس... ما يصنع الإنسان الأرثوذكسي ليس الإرادة الحسنة والعزيمة الجيدة والممارسات الأخلاقية والإخلاص للتقليد الأرثوذكسي وحسب، بل أيضاً التطهّر والإستنارة والتألّه. مراحل الشفاء هذه هي غاية حياة الكنيسة السرية، كما تشهد بذلك النصوص الليتورجية"[٥].

٢- اللاهوت كعلم علاجي

يتضح مما قيل أن المسيحية بشكل أساسي هي علم يشفي أي أنها طريقة طب نفسي وعلاج نفسي. وينطبق نفس الشيء على اللاهوت، فهو ليس فلسفة بل هو، بشكل أساسي، علاج شافٍ. يبيّن اللاهوت الأرثوذكسي بوضوح أنه، من جهة، ثمرة العلاج، ومن جهة أخرى طريقة العلاج. وبمعنى آخر فإن اللاهوتيين هم فقط أولئك الذين شُفوا والذين حققوا الشركة مع الله، وهم وحدهم الذين يستطيعون أن يُظهروا للمسيحيين الطريق الحقيقي للوصول إلى "مكان" الشفاء. اللاهوت إذًا هو ثمرة العلاج وطريقته في آن واحد.

هنا نحتاج للتوسع في ما قيل لكي نرى هذه الحقائق بطريقة أوضح. لذلك سوف نقتبس من تعاليم الآباء القديسين حول اللاهوت واللاهوتيين.

أعتقد أنه يجب علينا أن نبدأ بالقديس غريغوريوس النزينزي إذ أن الكنيسة لم تمنحه لقب اللاهوتي بالصدفة. إنه يكتب في بداية نصوصه اللاهوتية الشهيرة أنه لم يُعطَ لكل واحد أن يتكلم باللاهوت وأن يتحدث عن الله، لأن هذا الموضوع ليس رخيصاً ومتدنياً لهذه الدرجة. لم يوضع هذا العمل لكل الناس ولكن "للذين إمتُحنوا وحُسبوا مُختَبَرين في معاينة الله، وقد تطهروا في النفس والجسد أو على الأقل في طور التطهّر". لا يتكلم عن الله إلا أولئك الذين عبروا من العمل إلى الثيوريا (معاينة الله) ومن التطهّر إل الإستنارة. ومتى يحدث ذلك؟ "يحدث ذلك عندما نصبح أحراراً من الدنس والإضطراب الخارجيين، وعندما لا يختلط ما يسود في داخلنا بالغضب والصور الخاطئة". من أجل ذلك ينصح القديس قائلًا: "إنه من الضروري أن يكون المرء خالي البال لكي يعرف الله"[٦].

يربط نيلّس الناسك اللاهوت بالصلاة، والصلاة النوسية بشكل أساسي. إننا نعرف جيداً من تعليم الآباء القديسين أن من اكتسب نعمة صلاة القلب يكون قد دخل أول مرحلة من معاينة الله، لأن هذا النوع من

4J.Romanides: Romaioi I Romioi Pateres tis Ekklisias. Vol. 1,p.22f. In Greek

5Ibid.p.27

6Greogy the theologian. Or.27,7.NPNFns, vol.7,p.285

الصلاة هو شكل من الثيوريا. وبالتالي فإن كل الذين يصلون بالنوس يكونون في شركة مع الله، وهذه الشركة هي معرفة الإنسان الروحية لله. وهكذا يقول القديس نيلّس:"اللاهوتي هو مَن تصلي حقّاً. ومَن يصلّي حقّاً هو اللاهوتي"[٧].

يطرح القديس يوحنا السلمي اللاهوت الحقيقي في عدة مواضع في كتابه الروحي الممتاز "السلم". "إن الطهارة الكاملة هي أساس اللاهوت". "عندما تتحد حواس الإنسان بالله بصورة كاملة، فإن ما قاله الله يصبح بشكل ما مفهوماً بطريقة سرية. ولكن حيث لا يوجد هذا النوع من الاتحاد مع الله، يصير التحدّث عن الله أمراً بالغ الصعوبة"[٨] . وعلى العكس من ذلك فإن الذي لا يعرف الله حقاً، يتكلّم عنه فقط بشكل "إحتمالات"[٩]. وفي الواقع وبحسب تعليم الآباء، من السيء جداً التحدث عن الله في إفتراضات، لأن ذلك يقود المرء إلى الضلال. يعرف هذا القديس كيف ينمو في داخلنا "لاهوت الشياطين". تعطينا الشياطين الدنسة "دروساً في تفسير الكتاب" [١٠] في القلوب المحبّة للمجد الباطل التي لم تتطهّر من قبل بعمل الروح القدس. لذلك لا ينبغي أن "يشتغل بالكلام عن اللاهوت" مَن كان عبداً للأهواء.

ولقد تلقى القديسون "النِعَم الإلهية من دون تفكير"، وبحسب الآباء هم تكلموا باللاهوت لا بطريقة أرسطو من خلال التفكير ولكن "بطريقة الرسل" أي من خلال عمل الروح القدس. ما لم يكن الإنسان متطهراً مسبقًا من الأهواء، وخصوصاً من الخيال، لن يكون قادراً على التحدث مع الله أو الكلام عنه، لأن النوس "ذا المفاهيم المكوّنة يعجز عن الكلام في اللاهوت". لقد عاش القديسون اللاهوت "مكتوباً بالروح القدس".

إننا نجد نفس الكلام في كتابات القديس مكسيموس المعترف. فعندما يحيا المرء الفلسفة العملية التي هي التوبة والتطهّر من الأهواء، "يتقدّم في الفهم الأخلاقي". وعندما يختبر معاينة الله "يتقدّم في المعرفة الروحية". إنه يستطيع في الحالة الأولى أن يميّز بين الفضائل والرذائل، وفي الحالة الثانية تقود معاينة الله "المُشارِك إلى معرفة الخصائص الداخلية للأشياء الغير متجسمة والمتجسمة". ويتابع القديس مكسيموس القول أن الإنسان "يُمنح نعمة التكلّم باللاهوت عندما يُحمَل على أجنحة المحبة" في الثيوريا "وبمعونة الروح القدس يدرك صفات الله بالقدر الذي يستطيعه النوس البشري"[١٢].

ينكشف اللاهوت، أي معرفة الله، للإنسان الذي بلغ الثيوريا. وفي الواقع يقول نفس الأب في موقع آخر أن مَن يركّز بإستمرار على الحياة الداخلية لا يصبح منضبطاً وطويل الأناة ولطيفاً ومتواضعاً وحسب، بل أيضاً يصير قادراً على التأمل والتكلم باللاهوت والصلاة"[١٣]. وهنا أيضاً يرتبط اللاهوت بدرجة وثيقة بالثيوريا والصلاة.

يجب علينا أن نؤكد على أن لاهوتاً غير ناتج عن التطهّر أي عن "الخبرة" هو لاهوت شيطاني. وبحسب

7Evagrius. Philokalia 1, p. 62,61
8Ladder. Step 30. CWS p.288
9Ibid.
10Ibid. p.250
11Ibid. p262
12Philok.2,p.69,26
13Ibid. p.108, 64

القديس مكسيموس فإن "المعرفة بدون خبرة هي لاهوت الشياطين"[١٤].

القديس ثالاسيوس، الذي يشارك في نفس المنظور، كتب أنه عندما يبدأ نوس الإنسان بإيمان بسيط "فإنه سوف يصل حتماً للاهوت يتجاوز النوس ويتميز بإيمان ثابت سامٍ كما إلى معاينة غير المنظور"[١٥]. اللاهوت يتجاوز المنطق إذ هو إعلان الله للإنسان ويُعرِّفه الآباء على أنه الثيوريا. وهنا أيضاً يكون اللاهوت معاينةَ الله بشكل رئيسي. لقد كتب نفس القديس في موضع آخر أن المحبة الحقيقية تولّد المعرفة الروحية، "ويتبع ذلك شهوة الشهوات: نعمة اللاهوت"[١٦].

ويُقدَّم اللاهوت، في تعليم القديس ذياذوخوس أسقف فوتيكي، على أنه أعظم عطية ممنوحة من الروح القدس للإنسان. إن كل عطايا النعمة التي يهبها الله هي "بلا عيب" و"لكن العطية التي تلهب قلبنا وتحرّكه نحو محبة الصلاح الإلهي أكثر من أي شيء آخر هي اللاهوت". إذ أن اللاهوت ، كونه"أول مولود للنعمة الإلهية"، "يمنح النفس أعظم العطايا"[١٧].

وبحسب بولس الرسول، فإن الروح القدس يعطي معرفة روحية للواحد وحكمة للآخر(اكو ٨:١٢) ويفسّر القديس ذياذوخوس ذلك قائلًا أن المعرفة الروحية توحّد الإنسان بالله ولكنها لا تحرّكه لكي يعّبر خارجياً عن الذي يعرفه. يوجد رهبان يحبون الهدوئية وهم مستنيرون بنعمة الله "ومع ذلك لا يتكلمون عن الله". الحكمة هي إحدى المواهب العظمى والتي يعطيها الله للإنسان الذي يمتلك كلًا من التعبير والذهن المتسع. وهكذا تأتي معرفة الله "من خلال الصلاة والسكون العميق والإنعزال الكامل، بينما تأتي الحكمة من خلال التأمل المتواضع في الكتاب المقدس، وقبل كل شيء بالنعمة المعطاة من الله"[١٨].

إن عطية اللاهوت هي عمل الروح القدس، ولكن بالتعاون مع الإنسان، إذ إن الروح القدس لا يفعّل في الإنسان معرفة روحية للأسرار "بمعزل عن تلك القدرة الموجوة داخله والتي تسعى طبيعياً إلى هذه المعرفة"[١٩].

وبحسب تعليم القديس غريغوريوس بالاماس فإن المدعوين لاهوتيين بحق هم أولئك الذين يعاينون الله، واللاهوت هو الثيوريا. "لأنه توجد معرفة عن الله وعن تعاليمه، ثيوريا نسميها لاهوتًا"[٢٠]. وهكذا فمَن يقدّم تعليماً عن أمور الإيمان من دون أن يقتني معرفة وخبرة فيها يعلّم "بحسب حكمته الشخصية محاولًا من خلال الكلمات أن يظهر الصلاح الذي يفوق كل الكلمات، فإنه يكون قد فقد كل الصواب". وبحماقته "يكون قد صار عدواً لله" [٢١]. إلى هذا، توجد حالات أصحابها بلا أعمال، أي بدون أن يسلكوا في التطهّر، إلتقوا برجال قديسين وسمعوا لهم لكنهم بعد ذلك "حاولوا أن يكوّنوا لأنفسهم مفاهيمهم الخاصة" وهكذا رفضوا الرجل القديس

14PG 91,601 C.Letter20, to Marions the monl

15Philok.2, p. 330,80

16Ibid. p.328f, 62

17Philo. 1, p.275,67

18Ibid. p .234f, 9

19St. Maximus the confessor. Philok. 2,p. 239, 16

20Triads. 1.3, 15

21Ibid. 1, 3, 12

وإنتفخوا بالكبرياء"[٢٢].

توضح كل هذه الأشياء أن اللاهوت هو ثمرة شفاء الإنسان وليس منهجاً منطقياً. وحده مَن تطهر، أو على الأقل هو في مرحلة التطهّر، يمكن أن يتأسس في الأسرار الفائقة الوصف والحقائق العظيمة، وأن يتلقى إعلانات ومن ثمّ ينقلها للناس. وهذا في التقليد الآبائي الأرثوذكسي، يرتبط اللاهوت ويتحدد بالأب الروحي، والأب الروحي هو اللاهوتي بدون منازع أي أن مَن يختبر أمور الله يستطيع أن يقود أولاده الروحيين بطريقة سديدة.

يكتب الأب يوحنا رومانيدس قائلًا: "إن اللاهوتي الأرثوذكسي الحقيقي هو مَن اقتنى معرفة مباشرة عن بعض قوى الله بالإستنارة، أو يعرفها أكثر بالمعاينة. أو قد يعرفها بطريقة غير مباشرة من خلال الأنبياء والرسل والقديسين، أو من خلال الكتاب المقدس وكتابات الآباء وقرارات وأعمال مجامعهم المسكونية والمحلية. اللاهوتي هو الذي من خلال هذه المعرفة الروحية المباشرة والمعاينة يعرف بوضوح أن يميز بين أعمال الله وأعمال الخليقة وخصوصاً أعمال إبليس والشياطين. لا يستطيع الإنسان، من دون موهبة تمييز الأرواح، أن يمتحن الأرواح ليرى إن كان أمر ما من عمل الروح القدس أو من عمل إبليس والشياطين".

وهكذا، اللاهوتي والأب الروحي هما نفس الشخص. من المؤكد أن الشخص الذي يفكر ويتكلم باحثاً عن فهم تصوري لتعاليم الإيمان، على النمط الفرنكو-لاتيني، ليس أباً روحياً، ولا نستطيع أن نسميه لاهوتياً بالمعنى الصحيح للكلمة. ليس اللاهوت معرفة وممارسة مجردة مثل المنطق والرياضيات والفلك والكيمياء، بل على العكس، طابعه جدلي مثل المنطق الرمزي والطب. فالأول يهتم بأمور الدفاع والهجوم عِبر التدريب البدني وإستراتيجيات نشر الأسلحة والتحصينات والنظم الدفاعية والهجومية، فيما الثاني يقاتل الأمراض الذهنية والعضوية طلباً للصحة ووسائل إستعادة العافية.

إن اللاهوتي غير المطلع على طرق العدو ولا على طرق الكمال في المسيح ليس عاجزاً عن الجهاد ضد العدو لكماله هو وحسب، بل هو أيضاً ليس في وضع يسمح له بإرشاد الآخرين وعلاجهم. إنه يشبه أن يدعى المرء جنرالاً أو أن يكون جنرالاً بالفعل، من دون أن يكون قد تدرّب أو حارب أو درس فن الحرب، بل هو مهتم فقط بمظهر الجيش الجميل المجيد وبالزي العسكري البراق في حفلات الإستقبال والعروض. إن ذلك الإنسان يشبه الجزار الذي يتظاهر بأنه جراح أو كَمَن يدَّعي أنه طبيب بدون أن يعرف أسباب الأمراض أو طرق علاجها أو حالة الصحة التي يجب أن يستعيدها المريض"[٢٣].

22Ibid. 3, 1, 32.CWS p. 87

23Romanides: Dogmatic and Sumbolic Theology ... p. 85f. In Greek.